الاندفاع الألماني نحو شرق أوروبا: جذوره التاريخية وبنيته النظرية في الفكر السياسي الألماني في القرن التاسع عشر

Drang nach Osten to Eastern Europe: Its Historical Roots and Theoretical Structure in German Political Thought in the Nineteenth Century

الباحث: احمد عبد الحمزة كاظم
Ahmed Abdel-Hamza Kazim

ahmedwsda11@gmail.com

بإشراف أ. م. د. حيدر شاكر السلطاني
Supervised by: Assist. Pro. Dr. Haidaer Shakir Al-Sultani

قسم التاريخ/ كلية التربية/ الجامعة المستنصرية/ محافظة بغداد

dr.haideralsultani@gmail.com

الخلاصة: الاندفاع نحو الشرق مفهوم استعماري يشير إلى الحركة الاستيطانية الألمانية باتجاه الشرق في أراضي أوروبا الوسطى والشرقية والتي بدأت في القرون الوسطى على يد الامراء الألمان, كان سبب هذه الحركة الاستيطانية فائض السكان في الدويلات الألمانية الغربية، وللتبشير بالمسيحية بين الاقوام التي لا تزال على الوثنية هناك، والطموحات الإقليمية للأمراء الألمان، فضلاً عن دعوة حكام أوروبا الوسطى والشرقية للمزارعين الألمان والحرفيين للاستيطان في أراضيهم. أسهم التعاون الوثيق الذي حدث بين الفرسان التيوتون Teutonic Order البروسيين وأمير مقاطعة مازوفيا Masovia كونراد الأول Konrad I (١١٨٧- ١٢٤٧) في توجيه سياسة الاندفاع الألماني نحو الشرق فشكلوا بتعاونهم دويلة "براندنبورغ Brandenburg" مطلع القرن الثالث عشر التي نمت باطراد لتكون في نهاية المطاف دولة بروسيا القوية التي عملت على تحقيق رؤية الاتجاه نحو الشرق, لكن مع مطلع القرن الخامس عشر تعرضت فكرة الاستيطان الألماني الى انتكاسة كبيرة كان لها أثر كبير في تحديد الاندفاع العسكري الألماني نحو الشرق، تمثلت باتحاد اللتوانيين والبولونيين الذين قرروا إيقاف اندفاع الفرسان التيوتون شرقاً وكانت نتيجة المواجهة هزيمة الفرسان التيوتون في معركة غرونفالد Grunwal في عام ١٤١٠م, وعلى الرغم من ذلك لم تمت رؤية التوسع الألماني باتجاه الشرق والواضح أن نقطة البداية يمكن العثور عليها في مدة الرومانسية الألمانية والانتعاش في القومية الألمانية مع بداية القرن التاسع عشر، فأصبح تاريخ الاستيطان الألماني في الشرق محور الاهتمام وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر جعل المؤرخون والمفكرون والفلاسفة الألمان المستوطنات الشرقية الألمانية نموذجاً لتسويغ سياسة الجرمنة, كما ادعوا أن الغزو الألماني أو النشاط الاستيطاني في المناطق السلافية كان مجرد استعادة لمناطق الاستيطان الجرمانية القديمة، وبالتالي فإن التوسع الألماني يتوافق في رأيهم مع حق تاريخي للشعب الألماني.

Abstract: The rush to the east is a colonial concept that refers to the German settlement movement eastward in the lands of Central and Eastern Europe that began in the Middle Ages by the German princes, the reason for this settlement movement was the surplus population in the western German states, and to preach Christianity among the people who are still pagan there, And the regional aspirations of the German princes, as well as inviting the rulers of Central and Eastern Europe to German farmers and craftsmen to settle on their lands. . The close cooperation that took place between the Teutonic Order of the Prussians and the Province of Masovia Konrad I (1187-1247) guided the policy of the German rush to the East, and with their cooperation they formed a Brandenburg at the beginning of the thirteenth century, which steadily grew into an eventual state Strong Prussia, which worked to achieve the vision of the direction to the east, but at the beginning of the fifteenth century the idea of German settlement suffered a major setback that had a major impact in determining the German military rush to the east, It represented the union of the Lithuanians and Polish people who decided to stop the rush of the Teutonic knights to the east and the result of the confrontation was the defeat of the Teutonic knights at the Battle of Grunwal in 1410 AD, Despite this, the German expansion towards the East did not die, and it is clear that the starting point can be found in the German Romantic period and the revival in German nationalism with the beginning of the nineteenth century, The history of German settlement in the East became the Axis of attention, and during the second half of the nineteenth century, German historians, thinkers and philosophers made the German East settlements a model to justify the Germanisation policy, They also claimed that the German invasion or

settlement activity in the Slavic areas was merely a Recovery of the old Germanic settlement areas, and thus the expansion The German, in their opinion, agrees with the historical right of the German people.

الكلمات الدالة: الاندفاع نحو الشرق ، أوروبا الشرقية ، المجال الحيوي ، الاستعمار ، الجرمنة.

Keywords: Drang nach Osten, Eastern Europe, Lebensraum, coloniality, Germanisation

المقدمة:

كان الفكر التوسعي الألماني نتيجة متسقة مع السياق العام لصعود وتطور النظام الرأسمالي الغربي في كافة مفاصلة وهو تجسيد في واقعه للحقيقة المتمثلة بكونه جزءاً ومنتجاً فكرياً متوافقاً مع العقل الغربي الاستعماري الذي أسهم في تحديد صياغته النهائية جملة من المفكرين والفلاسفة الذين اعتقدوا أن صعود الدولة القومية الألمانية يستلزم التغلب على التشرذم الإقليمي اولاً ومحاولة إيجاد مجال خاص بالأمة الألمانية، يوفر لها متطلباتها الاقتصادية والاستراتيجية، لذا كانت المحاولات القاضية بفرض وتوسيع النفوذ الألماني في أراضي أوروبا الوسطى والشرقية نتيجة لهذه الرؤيا، وقد تزامن ذلك مع تطور الوعي القومي وسياسات التنافس مع القوة الكبرى, واستجابة للتحولات الهيكلية في النظام الاقتصادي والبنى الاجتماعية في المانيا.

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه الى مبحثين استعرض الاول " مفهوم الاتجاه نحو الشرق في التاريخ والتراث الألماني", تتبع الباحث فيه الجذور التاريخية للاتجاه الألماني نحو الشرق في اراضي أوروبا الوسطى والشرقية ابتداءً من حركة العناصر الألمانية وتوسع الامراء الألمان بمساعدة الفرسان التيوتون Teutonic Order الذين شكلوا بتعاونهم دويلة "براندنبورغ Brandenburg" مطلع القرن الثالث عشر التي نمت باطراد لتكون في نهاية المطاف دولة بروسيا القوية التي عملت على تحقيق رؤية الاتجاة نحو الشرق. أما المبحث الثاني, فقد سلط الضوء على " دلالات الاتجاه نحو الشرق في الفكر السياسي الألماني في القرن التاسع عشر" وتم التركيز فيه على استعراض دلالاته في كتابات جملة من الفلاسفة والمفكرين الألمان مطلع القرن التاسع عشر والذين سعوا الى اعطاء الاتجاه نحو الشرق بعداً وجودياً في بناء الهوية الألمانية التي يجب توسيع مجال تأثيرها بما يتوافق والرسالة الثقافية التي يحملها العرق الجرماني.

قدم الفلاسفة والمفكرون والمنظرون والسياسيون والعسكريون والجغرافيون والاقتصاديون المادة العلمية الاساسية التي كانت المعين الحقيقي لكشف النقاب عن تطور وجهات النظر الألمانية بشأن التوسع الألماني نحو الشرق في الأوساط الاكاديمية والتي قدمت إسهاماً مباشراً في التأصيل للتوجه الألماني نحو الشرق على المستوى الاكاديمي والسياسي والعسكري والشعبي, مما وفر نوعاً من الذرائعية التي استعانت بها الحركة الاستعمارية، من بينها على سبيل المثال لا الحصر, كتاب الاقتصادي الألماني فردريك ليست Friedrich List (١٧٨٩-١٨٤٦) الصادر في عام ١٨٤١ بعنوان "الاقتصاد السياسي للنظام الوطني National System of Political Economy " والذي دعا فيه الألمان الى انتهاج سياسة استعمارية من اجل الحصول على المجال الضروري لمستقبلهم واشار بشكل صريح الى استعمار أوروبا الوسطى والشرقية. من هذا المنطلق يحاول البحث البرهنة على مدى تاثير مثل هذا التراث الفكري واستمرار حضوره في الوجدان الألماني، في بنية العقل الألماني وفي توجيه مسارات حركته على أرض الواقع. ولا أدل على ذلك من التواصل بين هذا التراث الفكري الألماني وبين النازية وعقيدتها التوسعية في شرق اوربا والمعروفة باسم " نظرية المجال الحيوي " الذي مثل فيه التوسع نحو الشرق ثابتاً من ثوابت حركته التوسعية.

١- الاندفاع نحو الشرق في التاريخ والتراث الألماني: الاهداف والدوافع

الاتجاه نحو الشرق *Drang nach Osten*[١] مفهوم استعماري يشير إلى الحركة الاستيطانية الألمانية باتجاه الشرق في اراضي أوروبا الوسطى والشرقية والتي بدأت في القرون الوسطى على يد الامراء الألمان عندما منحتهم الإمبراطورية الرومانية المقدسة (٩٦٢-١٨٠٦) اقطاعيات وصلاحيات واسعة لتستميلهم الى جانبها في صراعها مع البابوية في بعض مراحلها[٢], فكانت نتيجة ذلك ان أصبحت السلطة الحقيقية بأيديهم فيما بعد, إذ توجهوا لاستيطان الأراضي شمال وشرق ما عرف لاحقاً بالمانيا والتي كان يسكنها السلاف وغاية هذا التوسع هو حماية الحدود الشرقية المفتوحة وغير المحصنة من هجمات القبائل الرعوية, كما أن استيطان الأراضي الواقعة شرق إماراتهم سوف يضيف لهم أراضي واسعة تدعم قوتهم واستقلالهم وتمكنهم من إقامة امارات جديدة واسعه يديرونها باستقلال عن سلطة الامبراطورية. فضلا عن ذلك، كان للعامل الديني تاثير قوي في تشجيع حركة الاستيطان، إذ أرادوا الألمان الكاثوليك تحويل السلاف الأرثوذكس والوثنيين البروس على سواحل البلطيق الى الكاثوليكية. في حين حتمت عوامل الأخرى مثل هذه التوجهات والتي تمثلت بتزايد اعداد السكان مما أثر في خلق صعوبات في الغذاء للفئات الفقيرة من المزارعين على أثر الضرائب الكبيرة التي أدت الى هيمنة الاقطاع على الأرض وسلبها من المزارعين وتحويلهم الى اقنان بعد عجزهم عن دفع مستحقات الأرض, فما كان منهم الا أن يبحثوا عن مجالات جديدة تتيح لهم العيش بمساحات اوسع[٣].

ابرز الامراء الألمان الذين تبنوا هذا التوجه كونراد الأول Konrad I (١١٨٧- ١٢٤٧) امير مقاطعة مازوفيا Masovia الذي قام بحملات عديدة ضد البروسيين الوثنيين على سواحل بحر البلطيق, ومع ذلك، صمد البروسيين ضده, فاستعان بالفرسان التيوتون لمساعدته بين عامي ١٢٢١ - ١٢٢٣ بذريعة نشر المسيحية بين الوثنيين[٤], إذ تمكن هؤلاء من اخضاع البروسيين, وتأسيس امارة مستقلة عاصمتها برلين في عام ١٢٣٧ م تطورت في السنوات التالية لتصبح قوة عسكرية كبيرة وأسست دولة إقليمية منظمة سعت إلى تعزيز موقعها ليس فقط في مناطق البلطيق ولكن أيضاً في بولندا, كما صار يطلق عليها "براندنبورغ Brandenburg"[٥].

واقعاً, كانت هناك أحداث في أوروبا الوسطى والشرقية ساعدت على نمو وازدهار هذه الامارة أهما الحروب والنزاعات الاهلية ثم اجتياح المغول لأوروبا الشرقية عام ١٢٤١م الذي خلف أثاراً جسيمة إذ دمرت بولندا الجنوبية وهنغاريا, ففسح هذا المجال للألمان للاستقرار هناك سواء عن طريق الاستعمار أو عن طريق التسرب السلمي فحصلوا على فرص كبيرة في إعادة استيطان الارض بعد الدمار المغولي, وبدأ التجار ورجال الأعمال من جنوب ألمانيا يهيمنون على التجارة الخارجية وتنافسوا مع الإيطاليين والمجريين, ولعدة قرون بعد ذلك، فكانت معظم بلدات السهل الهنغاري تهيمن عليها عناصر ألمانية نافذة[٦], فضلاً عن ذلك, كان العامل الأساس للتوجه الألماني للشرق هي الفرص المتاحة للعيش والثروة، خصوصاً أن الأراضي تكاد تخلوا من السكان في منطقة البلطيق, إضافة الى العامل الديني كما اسلفنا[٧].

استمر نمو براندنبورغ باطراد، لكن مع نهاية القرن الرابع عشر ومطلع القرن الخامس عشر واجهت تلك الامارة احد اهم العقبات التي كان لها أثر كبير في تحديد الاندفاع العسكري الألماني نحو الشرق، تمثل باتحاد اللتوانيين والبولونيين في عام ١٣٨٥م الذين قرروا إيقاف اندفاع الفرسان التيوتون شرقاً وفتح ممر للبولنديين الى بحر البلطيق وكانت نتيجة المواجهات هزيمة الفرسان التيوتون البروسيين في معركة غرونفالد Grunwal في عام ١٤١٠م[٨], وخضوع نصف بروسيا للبولنديين ففقدت على أثرها الاراضي الواقعة جنوب نهر الفستولا وأصبح البولنديين يمتلكون القسم الأكبر من المنطقة الساحلية والداخلية لنهري الفستولا ونيمان الاسفل[٩].

قبالة ذلك، كان الاستعمار الألماني في مناطق غرب البلقان وحدود الدانوب أداة سياسية لملكية هابسبورج Habsburg Monarchy (١٥٢٦-١٨٠٤) التي كان هاجسها الاول ايقاف توسع العثمانيين وعدهم قوة عازلة ضد الإسلام، لذا سعت وروجت الحكومة في فيينا استعمار الأراضي بالعناصر الألمانية التي تركها ساكنيها من الأعراق الاخرى الذين نزحوا منها بتشجيعها ودعمها لمواجهة العثمانيين، فكانت سياستها تهدف إلى إبقاء الهنغاريين والصرب على طول الحدود واستغلالهم للدفاع ضد التوسع العثماني[١٠].

تجدر الإشارة، إلى أن التوسع العسكري لم يكن الوسيلة الوحيدة في انتشار العناصر الألمانية في أوروبا الشرقية بل كان هناك توسع سلمي[١١], للصناع وأصحاب الحرف والتجار الألمان بتشجيع من الامراء السلاف في بادئ الامر، إذ استقر الكثير منهم في بوهيميا وجنوب بولندا في منطقة السفوح المنخفضة التي تمتد بين سيليزيا العليا وغاليسيا فاستقروا في مدينة لامبرغ Lemberg, وأنشئت عدة مدن أخرى أصبحت تغص بالمهاجرين الألمان الذين وقفوا حائل بين التشيك، سكان الهضبة الداخلية، وبين منطقة تلال مورافيا Moravia التشيكية, وتوغلوا في حوض نهر اولتافا Ultava ابرز روافد نهر البه Elbe، وشكلت منطقة استيطانهم نطاق حول جبال الأرز والسوديت[١٢].

كانت العلاقة بين التشيك والألمان واعدة لعملية الاندماج، أو، على الأقل، قيام علاقة تكافلية بين العنصرين، لكن التوترات الاجتماعية والاقتصادية في وقت لاحق خلقت مناخاً ملائماً للصراعات والتنافس, تطور بشكل كبير عام ١٦١٨ بين الطرفين اسفر عنه انتصار الألمان وتحجيم دور التشيك ومصادرة الكثير من ممتلكاتهم وقيام النبلاء الألمان بجلب المزيد من المستعمرين الألمان من النمسا وبافاريا Bavaria وسوابيا Schwaben [١٣].

انعكست حرب الثلاثين عام (١٦١٨-١٦٤٨) على بروسيا إذ دمرت أراضيها وفرت اعداداً كبيرة من اللاجئين الألمان الى بولندا طلبا للأمان والسلم خاصةً ان بولندا كانت تعاني من نقص في السكان بسبب هجرة البولنديين الى الشرق والجنوب الشرقي، فاستوطن الألمان في سيليزيا واحدثوا تغييراً ديمغرافياً كان نتيجته على سبيل المثال ان مدينة دانزغ Danzig كانت حتى عام ١٦٥٠ يتقاسمها البولنديين والألمان مناصفة في عدد السكان الا انها بعد هذا التاريخ أصبحت ذات اغلبية المانية[١٤]، ومن ثم وصل قسم من المهاجرين الى أراضي المجر اعلى نهر الاديج Adige متخطين الأراضي بين نهري البو Po ودونا Duna (الطونه) في إقليم بولزانو Bolzano[١٥], خصوصاً بعد طرد الأتراك من المجر وترانسلفانيا Transsilvanien في نهاية القرن السابع عشر، فكانت الحاجة ماسة الى سكان جدد لذا هاجرت جماعات كبيرة من مناطق الرور Ruhr العليا والوسطى وجنوب المانيا واللورين والالزاس الى تلك المناطق[١٦].

لعل ابرز ما ساعد على استمرارية الاندفاع نحو الشرق هو الامراء البروس الاقوياء الذين رأوا في الشرق مجال متاح لتوسيع سلطة امارتهم, كان ابرزهم فردريك وليم Friedrich Wilhelm(١٦٤٠-١٦٨٨) الذي اصبحت بروسيا في عهده دولة قوية بسبب سياسته التي جعلتها دولة عسكرية من الدرجة الاولى إذ انهى تبعية بروسيا الشرقية لبولندا[١٧], اما فردريك الثاني Fredrick II (١٧٤٠- ١٧٨٦) فكان من أوائل الامراء الألمان الذين روجوا لفكرة الحدود الشرقية بعدها الخط الفاصل بين الحضارة والهمجية[١٨], فقام بأعمال توسعية تركت أثرها على مستقبل بروسيا بشكل خاص وألمانيا لاحقاً إذ استغل مع القوى الكبرى (روسيا والنمسا) الوضع في بولندا ليجعله يتماشى مع سياستهم في القرن الثامن عشر وما تلاه, على الرغم من أن بولندا كانت مملكة رسمية في ذلك الوقت الا انها كانت كيان من نبلاء بدون أي حكومة مركزية فعالة, فدخلت تلك القوى التي ادركت مزايا الوضع السياسي في بولندا في توافق للحفاظ على العجز البولندي[١٩]. استطاع فردريك الثاني ان يضم وادي الاودرOder الأعلى الذي يسمى سيليزيا في عام ١٧٤٢ وقد عزز ضم سيليزيا ذات المناجم الغنية وعدد السكان الكبير من مكانة بروسيا[٢٠], خصوصا بعد ان نزح اليها قرابه (٣٠٠.٠٠٠) من الألمان كما استوطنها الأجانب الذين كانوا في جيش فردريك الثاني والذين قدر عددهم في عام ١٧٥١ ما يقرب (٨٠.٠٠٠) جندي، واستطاع فردريك الثاني ان يكسب في التقسيم الاول لبولندا عام ١٧٧٢ الجزء الشمالي من بولندا الذي يربط أراضي براندنبورغ الوسطى وبروسيا الشرقية حيث نزح اليه مباشرة حوالي (١٢-١٥) الفاً من الألمان[٢١].

استمرت موجات الهجرة الألمانية التي لم تقتصر على أوروبا الشرقية وانما تعدت موجاتهم الى روسيا القيصرية إذ هاجر اليها في المدة (١٨١٦-١٨٢٦) اكثر من عشرين الف من أصحاب الحرف والتجار الألمان الذين سكنوا في المدن الرئيسة وأنشأوا العديد من المستوطنات التي تحمل الطابع التبشيري المسيحي البروتستانتي على طول نهر الفولغا Volga التي عرفت بـ مينونتMennonit وفي عام ١٨٦٧ بلغ عدد المهاجرين الألمان (٩٨١) الف نسمة[٢٢], كما هاجرت موجات أخرى الى اراضي فولينيا Volyniea، وحوض الدانوب Danube Basin, ودوبروجا Dobrudja، بسارابيا Bessarabia، والفولغا الوسطى Centeral Volga[٢٣], وقد استعانت

الدويلات الألمانية بهؤلاء المهاجرين في ترسيخ وجودها التجاري عن طريق اتفاقات تجارية أدت في الأخير الى تعاظم نفوذها الاقتصادي في أراضي نهر الدانوب وجنوب شرق أوروبا(٢٤).

يتضح من كل ما سبق, أن العناصر الألمانية منذ اندفاعها لتوسيع رقعة عيشها في أوروبا الوسطى والشرقية خاضت صراعاً من اجل البقاء مع الشعوب السلافية فكان الألمان بالدرجة الرئيسة يسعون لتوسيع سلطة إمارتهم سياسياً واقتصادياً ولتأمين حيز خاص يعيشون فيه خصوصاً انهم باتوا في مجال ضيق ليس فيه تماثل بين اعداد السكان والأرض التي يعيشون عليها, فاتسمت هذه الرغبة بظاهرتين الاولى الاندفاع العسكري نحو الشرق الذي مثله في الاغلب الامراء البروس بدعوى تمدين الشعوب السلافية وتنصيرها, وهذا الامر انطوى على صراع مرير اتسم بالقمع والتوسع تارة والانكماش والتقهقر تارة اخرى إلا أن نتائجه البعيدة كانت في صالح الشعب الألماني(٢٥). والظاهرة الثانية هي الانتشار السلمي في مناطق أوروبا الشرقية من جماعات كبيرة من المستوطنين الألمان في موسكو والمجر.

الاندفاع نحو الشرق: عملية التاصيل في الفكر السياسي الألماني في القرن التاسع عشر:

يعتقد ان فكرة الاندفاع نحو الشرق لدى الألمان قد ترسخت في العصر الحديث من الدعوة الفرنسية بأحقية حصولها على حدودها الطبيعية بعد ثورة عام ١٧٨٩م والتي تحمل في جوهرها نزعة للتوسع لضمان أمن فرنسا عن طريق الاحتماء بالحدود الطبيعية(٢٦), وفقا لتصور نابليون الذي جسدته عبارته القائلة "ان سياسة الدولة تكمن في جغرافيتها"(٢٧), ومما يؤيد هذا التصور ما كتبه البارون الألماني ديتريخ فون بولوف Dietrich Von Bulow (١٧٥٧-١٨٠٧) في كتابه الذي نشر في عام ١٧٩٩ بعنوان "روح النظام الجديد للحرب *Geist des Neuen Krieges Systems*" إذ قال "انه طالما هناك شيء يقتسم او يؤخذ فسوف تقع حروب ... وهذه الحروب سوف لا تتوقف حتى تبلغ الدول الموجودة الان حدودها الطبيعية"(٢٨), وبالنتيجة كانت هكذا دعوات ظاهرة جديدة في أوروبا انبثقت من النمو الديمغرافي وتفشي البطالة مع مطلع القرن التاسع عشر(٢٩), والتي أدت الى ان تصبح عملية غزو المجال في الفكر الاستعماري الأوربي تشبه في أهميتها تدفق الافكار الجديدة التي فجرتها الثورة الفرنسية(٣٠).

تعمق الشعور الألماني بالحاجة الى الوحدة والقوة والعمل على توسيع مجال استيطان الامة الألمانية، على أثر هزيمة بروسيا وتقهقر الدويلات الألمانية على يد نابليون في عام ١٨٠٦م، وقد اتضح ذلك في كتابات جملة من الفلاسفة الألمان الذين كان ابرزهم الفيلسوف جوهان جوتليب فخته Johann Gottlieb Fichte (١٧٧٢- ١٨١٤) الذي كتب " في علاقة الشعوب لا توجد اخوة او جار او إنسانية, بل يريد الجار ان يكبر على حساب جاره وان يمد اليه نفوذه, والشعب الذي يقبل هذه الدونية تكون نهايته، لأنه سيكون فريسة لمن يريد القوة, وافضل وسيلة للحفاظ على السلام هي الاستعداد للحرب"، وفي خطابه الثالث عشر الى الامة الألمانية قال " المانيا مركز الثقل في أوروبا, وميزان التعادل فيها, نظراً لأنها في القلب، والقلب لا يميل مع الجناحين بل يحرص على توازنهما"(٣١).

ضمن هذا السياق أدلى الفيلسوف والمندوب البروسي ويلهيلم فون همبولتWilhelm von Humboldt (١٧٦٧- ١٨٣٥) في مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ بتصريح قال فيه إن من مصلحة القوة الأوروبية ألا تكون هناك دولة ألمانية موحدة لأنها ستصبح دولة توسعية وبالتالي تهدد مستقبل أوروبا(٣٢), ثم جاء المؤرخ الألماني ارنولد هيرمان لودفيج Arnold Hermann Ludwig (١٧٦٠- ١٨٤٢) ليؤكد وجهة النظر هذه في عام ١٨١٧ عندما ذهب الى ان بقاء المانيا مشتتة ضمان لأمن أوروبا فقال "لو أصبحت المانيا دولة قومية متحدة قائمة في قلب أوروبا ككتلة متماسكة, تملك موارد هائلة من القوة البشرية والمواد الطبيعية والصناعية لكان من الصعب عليها ان تقاوم الاغراء في استعمال مزاياها الجغرافية والاستراتيجية لتصبح دولة أوروبا المحاربة"(٣٣).

اما الفيلسوف الألماني ارنست موريتز ارندت Ernst Moritz Arndt (١٧٦٩- ١٨٧٠) فكتب "أن الكفاح من أجل المجال بين الدول الأقوى وإخضاع الدول الأضعف كان ضرورة اجتماعية طبيعية"(٣٤), وكان يرى ان اتساع مجال العيش ضمان لقوة وحرية وسلطة أي دولة, إذ تنبأ بمستقبل الألمان الباهر وانهم يملكون صفات مميزة وقد "احتفظوا بنقاء دمهم ولا يشبهون الا انفسهم, يعيشون حياة المانية اصيلة بكل معنى الكلمة دون تأثيرات غريبة"(٣٥), ثم انه يعظم من شأن الدولة في وجدان الفرد بقوله "كل الأشياء التي يفعلها الرجل ويكونها ويفكر فيها ... تأتيه من الدولة فقط"(٣٦), وأوضح مركزية المانيا في اوربا بقوله "احلنا الله في وسط أوروبا, فنحن الألمان قلب المنطقة التابعة لنا من العالم"(٣٧).

عمق الفيلسوف جورج فريدريش هيجل George Friedrich Hegel (١٧٧٠-١٨٣١) شعور ساسة الدولة في الفتح والاستعمار عندما أنكر أن المعيار الأخلاقي الإنساني ينطبق على سلوك الدولة فكتب "ان الدولة هي العقل المطلق المتيقن الذي لا يعترف بسلطة غير سلطته ولا يقر أي قواعد مجردة للخير او الشر او الخجل او المكر او الخداع"(٣٨).

طرح في الوقت نفسه الاقتصادي الألماني فردريك ليست Friedrich List (١٧٨٩-١٨٤٦) أفكار وآراء أسهمت بشكل كبير في صياغة الشعور بعظمة الامة الألمانية التي رأى من الضروري ان تتوسع إذ كتب "أن أسس البناء المعنوي للأمة بما يصحبها من تطور ثقافي ونهضة علمية يتمثل بالتطور المادي والقوة السياسية والتي لا يمكن ان تكون الا عندما يتوافر لهذه الامة العدد الكبير من السكان ومجال فسيح من الأرض مع دخل ثابت من الموارد الطبيعية المختلفة ولهذا فان الامة المحدودة عدد السكان والمحدودة المجال لا يمكن ان تتوافر لها أداب او ثقافة او مؤسسات للنهوض بالفنون والعلوم كما لا يمكن للامة الصغيرة ان تزيد من تطور وتقدم مواردها الانتاجية المختلفة الى اقصى مدى لهذا التطور(٣٩)", كما رأى "أن لا مانع من ان يكون لألمانيا مستعمرات في جنوب شرق أوروبا وفي الامريكيتين الوسطى والجنوبية وان تدعم هذه المستعمرات بكل موارد الأمة بما في ذلك شركات استعمارية قوية مع نظام قنصلي ودبلوماسي قوي" لكنه اكد على اهمية اندفاع الألمان نحو الشرق "أن من الافضل للألمان ان يهاجروا الى ألدانوب لا الى أمريكا الشمالية"(٤٠) وأكد "أن المانيا يجب

ان تقوم بتسرب سلمي في أراض الدانوب والبلقان وهذه المناطق هي الحدود الطبيعية لألمانيا ثم ان من مصلحتها ان يتوفر النظام والامن فيها"(٤١).

رأى ليست التفوق العرقي الجرماني شيئاً عظيماً، مقارنة مع حضارة "الأعراق" الاخرى ودعا الى تسوية المجالات غير المأهولة، وكان يعتقد أن الدول التي لم تكن مجهزة بموارد كافية لها الحق في التوسع (٤٢). يستنتج من ذلك أن هذه الطروحات مثلت الأفكار الرئيسة للعقيدة القومية الألمانية في التوسع الاستعماري خصوصاً عندما رفض ليست ابدية الحدود، وتأكيده على ضرورة ارتباط الألمان بأرضهم وتوسيعها قدر الامكان، وخلق وحدتهم التي طال انتظارها.

توقع ليست في كتاباته ان الصراع القادم للدول والأعراق المتحضرة سيتركز على توزيع مجالات النفوذ والمصالح عبر الارض، واعتقد ان حدوث ذلك مرهون باستكمال استعمار اغلب المناطق المكتشفة حينها لن تبقى هناك أرض جديدة للاستعمار وقتها يحدث الصراع على مجالات النفوذ بين الدول الكبرى كما تنبئ ليست، وكان هذا في وقت لم يكن فيه أحد قادراً على إدراك ذلك الامر (٤٣).

اما كارل ريتر Karl Ritter (١٧٧٩-١٨٥٩) فيرى ان القوة ضرورية لبقاء الحضارات, فيقول "ان الحضارات البشرية ماهي الا وجود عضوي داخل الطبيعة وانها تنمو وتنضج ثم ما تلبث ان تموت وتفنى, أي ان لها دورة حياة, وان الحضارات من اجل ان تعيش وتبقى حية لابد لها من ان تصارع غيرها بما تملك من قوة من اجل المجال الذي تريد ان تتوسع فيه وعليها ان تسحق في طريقها كل العناصر الضعيفة التي تدخل في منافستها"(٤٤). تركت هذه النظرية أثرها في علماء الانثروبولوجيا الألمان إذ بذلوا جهداً كبيراً لدراسة النظم الألمانية السياسية والاقتصادية والاجتماعية المبكرة وأخذوا يرجحون الراي القائل بعضوية التطور السياسي والاجتماعي والقانوني والذي بلغ قمة تطوره في القرن التاسع عشر والذي كانت جذوره البدائية متمثلة بالنظام والمجتمع الجرماني(٤٥).

وفقا لهذه الرؤيا، فإن الأرض توثر في الشعب الذي يعمل على تحويلها لتتوافق مع قابليته للتوسع وهذه نتيجة مقدرة شعب ما لإنتاج الحضارات بمجرد ان يتحصل على قيمة مجال او إقليم، فالدولة تصبح عضوية بتنظيم الأرض بسبب حركة الشعب الذي يعبئه الخطاب الجغرافي - السياسي الاستراتيجي الذي يعد مصيري لتفوقه في الصراع من اجل التوسع(٤٦). على سبيل المثال اعتقد الجغرافي الألماني أرنست كاب Ernst Kapp (١٨٠٨- ١٨٩٦) في كتابة " الجغرافية الفلسفية المقارنة *Philosophische oder vergleichende Erdkunde*" الصادر عام ١٨٤٥ في تصوره للتطور التاريخي المتوقع للاتحاد الكونفدرالي الألماني *Deutscher Bund* (١٨١٥-١٨٦٦)، وعلى النقيض من اغلب معاصريه، بأن هذا الاتحاد الكونفدرالي شكل جديد وواعد للنظام السياسي خصوصاً أنه يمثل مجتمعاً عضوياً قائماً على الاتحاد من المؤمل ان يصبح نموذجاً لكيان امبراطورية المانية من شأنها أن تتوسع في كامل أوروبا، ومن ثم على العالم بأسره. من وجهة نظره أن ألمانيا تملك موقعاً يفوق بتميزه موقع جميع الدول، وهذا بدوره يبرر لألمانيا الاسهام في رسم مصير العالم بل والتحكم به, فشبه العالم بالجسد ووضع المانيا بموقع القلب النابض لهذا العالم, كما ذكر "سيتم اداره العالم بأسره من الموقع الجغرافي – التاريخي المتمثل بألمانيا" ويؤكد "ان بمجرد نظرة على رسم الكرة الارضية تقنعنا بأن الشعب الألماني مقدر له وبشكل لا مثيل له تولي مهمه المنقذ السياسي للعالم"(٤٧). المتمعن في مضمون هذا الخطاب الذي يؤكد المركز العالمي لألمانيا، يستطيع ان يشخص الأهداف الحقيقية له وهي تقديم المانيا بديلاً عن الامبراطورية البريطانية، القوة الأولى في العالم والرائدة في الاقتصاد العالمي آنذاك.

بطبيعة الحال, كان الاستيطان المتناثر للألمان في أوروبا الشرقية والوسطى وتأخر الوحدة الألمانية قد أفضياه الى سهولة تشتتهم السياسي، فبرز السؤال في القرن التاسع عشر عن كيفية تضمين القومية الألمانية في دولة واحدة موحدة إذا ما أراد الألمان تحديد هويتهم الثقافية وبناء دولتهم؟ تبعه سؤال أخر: هل ينبغي إنشاء دولتهم على نمط الامة المتجانسة عرقياً وفقاً للنموذج الفرنسي؟ أو العمل على استقطاب أكبر عدد ممكن من الألمان والمتأثرين بالثقافة الألمانية تحت مظلة هذا الدولة المزمع تاسيسها طبقا لتلك المقاسات؟

واقعا، برزت تلك الاشكالية لأول مرة بشكل رسمي في نقاشات " جمعية فرانكفورت الوطنية *Frankfurter Nationalversammlung*" في عام ١٨٤٨ عند مناقشة موضوع " توحيد الألمان "، فأصبح من الواضح أنه لا يوجد بديل, إذ فضلت اغلبية أعضاء الجمعية بما في ذلك الليبراليين دمج أراضي هابسبورج في الرايخ الأكبر المزمع تكوينه, وكانت رؤيتهم مستوحاة من طموحات القوة العظمى في حينها والخوف من السلاف, فصار الكثير من أعضاء الجمعية يرددون مقولة "ينبغي ان يمتد الوطن الألماني, بقدر ما تسمع من يتحدث الألمانية" للكاتب الألماني مورتيز ارنت سالف الذكر والتي قالها في عام ١٨١٣ أثناء حرب التحرير ضد نابليون بونابرت(٤٨).

وفي أثناء ثورة ١٨٤٨ تم تصور حدود توسيع المجال الجغرافي الألماني عندما تبنى الثوار الألمان نصاً ادبياً للشاعر الألماني أغسطس هاينريش هوفمان August Heinrich Hoffmann (١٧٩٨-١٨٧٤) كتبه في وقت سابق من الثورة (عام ١٨٤١) للاحتفاء بالاتحاد الجمركي الألماني الذي تشكل عام ١٨٣٤ والمعروف بـ "الزولفرين Zollverein", أطلق هوفمان على نصه الادبي بـ " انشودة المانيا *Das Lied der Deutschen*" اصبح بعدها أيقونة ورمز ونشيد للثوار وكان ينص على " المانيا, ألمانيا قبل كل شيء, قبل كل شيء في العالم، عندما نصمد دائماً بإخوة سوياً للدفاع والحماية من ميوز Meuse إلى ميميل Memel ومن اتش Etsch الى فيهمارن بيلت Fehmarn Belt, ألمانيا، ألمانيا قبل كل شيء, قبل كل شيء في العالم"(٤٩), مع ذلك لم يتطابق الواقع السياسي الذي كان يوحي به هذا النص وغيره من النصوص ذات الدلالات المتماثلة، مع المنطقة الألمانية الطبيعية التي تصورها الألمان تمتد بين أربعة أنهار أوروبية رئيسة. ولعل تبني الاخير نشيداً وطنياً رسمياً للدولة الألمانية في عام ١٩٢٢ يؤكد حضور دلالاته واستمرار فاعليتها في الوجدان الألماني(٥٠).

بعدها جاء خطاب النائب البروسي كارل فريدريك وليام جوردانCarl Friedrich Wilhelm Jordan (١٨١٩- ١٩٠٤) في برلمان فرانكفورت في ٢٤ تموز عام ١٨٤٨ مؤكداً النهج نفسه، عندما قدم برنامجاً للمسألة البولندية جاء فيه "ان سيادة العنصر الألماني على معظم العناصر السلافية باستثناء الروس, هي حقيقة يجب فرضها على كل مراقب محايد للتاريخ الطبيعي وهذه الحقيقة رسمتها العدالة الكونية...ان تقسيم بولندا لم يكن إبادة جماعية وانما اعلان موت لها وليس امامنا سوى دفن الجثة التي طال امد تفسخها, كما لا يجب التسامح مع سكانها الاحياء"(٥١). وفي عام ١٨٥٠ دعا الكاتب غوستاف فيرتاغ Gustav Freytag (١٨١٦- ١٨٩٥) الألمان للاستقرار في الأراضي البولندية وكان هذا ضمن النقاش الامبريالي الذي جرى بين المثقفين لحل مشكلة الهجرة الألمانية الى أمريكا الشمالية إذ دعوا الى

احياء الرغبة القديمة في الاتجاه نحو الشرق واتهموا المهاجرين بإدمان الهجرة, دون ان يضعوا حلول جذرية لبؤسهم الذي دفعهم للخروج من البلاد(٥٢).

اما الخبير الاقتصادي الألماني لورنز فون شتاين Lorenz Von Stein (١٨١٥- ١٨٩٠) فقد كتب في ١٨٥٦ ان التقارب بين الشرق والغرب ضروري لتحقيق الاستقرار للنظام الأوروبي والذي لا يمكن ان يكون الا من خلال ألمانيا قوية وموحدة قادرة على القيام بواجبها المتمثل بحماية أوروبا الوسطى والشرقية من كل تهديد خطير, فيذكر "بصفتها حاملاً وممثلاً لمصالح أوروبا كلها، فإن ألمانيا ملزمة بتنفيذ المهمة الروحية العظيمة لأوروبا في وجه الشرق"(٥٣).

تم نشر مفهوم الدولة الألمانية الاستعمارية في الشرق في عام ١٨٦٢ على يد المؤرخ الألماني هنريش فون ترايتشكه Heinrich Von Treitschke (١٨٣٤-١٨٩٦) في كتابه "النظام الألماني التيوتوني البروسي *Das deutsche Ordensland Preussen*" إذ شدد على أن وظيفة الدولة الألمانية هي استعمار أوروبا الشرقية فقال "نحث المستوطنين الألمان على الاتجاه نحو الشرق... على الرغم من سلسلة المستعمرات الألمانية على ساحل بحر البلطيق, الا ان هناك رابط آخر مفقود انها أرض بروسيا شرق فيستولا"(٥٤), وذكر "حملت بروسيا التوجه الاستعماري لألمانيا بأكمله ... لذلك قام شعبنا، في الأماكن المجاورة بتكوين الاسس الرئيسة للسياسة الاستعمارية والتي نفذها لاحقاً البريطانيون والإسبان في المساحات الشاسعة من أمريكا وبنجاح مماثل"(٥٥).

اخذت فكرة الحصول على مجال جديد للشعب الألماني وضرورة نمو الحدود السياسية الألمانية تزداد رسوخاً في عقل المنظرين السياسيين الألمان خصوصاً بعد الوحدة الألمانية في عام ١٨٧١ والتي ترتب عليها صعود الإمبراطورية الألمانية سياسياً واقتصادياً إذ نمت الصناعة بشكل كبير الامر الذي أدى الى تضخم في عام ١٨٧٣ بسبب ضيق الأسواق الخارجية والتوسع المفرط وغير المحسوب مما جعل الأصوات تتعالى داخل المانيا بضرورة الحصول على المستعمرات(٥٦), وفي الحقيقة, كان المستشار الألماني اوتو فون بسمارك Otto Von Bismarck(١٨١٥- ١٨٨٩) رافضاً لأي سياسة استعمارية في ما وراء البحار حتى عام ١٨٨٤ عندما اضطر للرضوخ للأمر تحت ضغط الاوساط التجارية الاستعمارية وارضاء للرأي العام ولضمان المواد الاولية للصناعات الألمانية وفتح الأسواق الخارجية(٥٧).

في عام ١٨٨٦ نادى بول دي لا جارد Paul de Lagarde (١٨٢٧-١٨٩١) بـ " نحن بحاجة الى ارض على عتبة بابنا [اشارة الى الاراضي في أوروبا الشرقية]، وإذا لم ترغب روسيا في ذلك، فأنها تجبرنا على المضي قدما في الحرب ... تسعة اعشار الألمان يعيشون على اناملهم فلنحذو كما فعل اسلافنا "(٥٨).

واقعاً, كانت الفكرة التي هيمنت على دعاة الاستعمار هي أن ألمانيا محصورة بين فرنسا وروسيا مما يجعلها في وضع صعب على كافة المستويات فهي لا تملك مجال كبير للمناورة، كما أن المناطق التي من المؤمل استعمارها سواء في أوروبا الشرقية او في ما وراء البحار كانت في رأيهم تقدم حلاً, وكانت فكرة تبني سياسة استعمارية عالمية جذابة سياسياً وتجارياً, اضافة الى العامل الابرز وهو ان الاقتصاد الألماني كان يعاني من نقص في الموارد الاولية بشكل كبير ويمكن حل هذه المشكلة فقط إذا ما تم تبني سياسة عالمية فعلى سبيل المثال شكلت واردات المواد الخام عام ١٨٨٨ ما لا يقل عن ٤٥ % من إجمالي واردات المانيا. اضافة الى ذلك, عززت التوقعات الديموغرافية الدعوة لتبني سياسة عالمية خاصةً ان الحجة التي كانت شائعة انذاك هي أن الزراعة الألمانية لم تكن في وضع يسمح لها بإطعام السكان الألمان في المستقبل القريب, وكان الذي أكد هذه المخاوف النمو السكاني الكبير بين عامي ١٨٧١ - ١٨٩٥ إذ زاد عدد السكان الألمان من ٤١ مليون إلى ٥٢,٣ مليون نسمة(٥٩), لذا يمكن القول، ان العناصر الروحية والعنصرية والأنثروبولوجيا مع الحتمية الجغرافية والمخاوف الديمغرافية والنزوغ الاستعماري، تفاعلت جميعها وشكلت أيديولوجية قومية شهدت الحاجة إلى الوئام بين الشعب والمجال الحيوي(٦٠).

وبصريح العبارة, لم تلب المستعمرات التي حصلت عليها المانيا في الخارج أي من طموحات الأرستقراطية الاقتصادية بسبب ضيق المجال الاستعماري الألماني فالمستعمرات التي حصلوا عليها لم تكن لها أي أهمية اقتصادية بالنسبة للتطور الاقتصادي الألماني, وبالنتيجة كانت مسألة توسيع مجال الأسواق الخارجية ومناطق النفوذ مطروحة بحدة في مناقشات الاقتصاديين الألمان لان المستعمرات الألمانية لم تستطع ان تستوعب سوى ١٥٪ من رؤوس الاموال الألمانية لهذا كان هناك تناقض على وشك الانفجار بين نمو القوى المنتجة وتصاعد الإنتاج بوتائر سريعة وكبيرة وبين إمكانيات تصريفها(٦١).

تجدر الإشارة الى ان المنافسة الاستعمارية في افريقيا واسيا في نهاية القرن التاسع عشر كانت قد جنبت أوروبا الصراع الإقليمي الى حد ما, والواقع, كانت نهاية القرن التاسع عشر إيذانا بنهاية عصر الكشوفات الجغرافية الاستعمارية، فلم تعد هناك أراضي قابلة للاستعمار, ومع توقف التوسع الخارجي فان التوتر السياسي داخل أوروبا اشتد مع احتمال الصراع العسكري للسيطرة على المجالات المتداخلة بين القوة الاوربية الاستعمارية وبالأخص في أوروبا الوسطى والشرقية(٦٢), وقد وصف عالم الجغرافية السياسية البريطاني هالفورد ماكيندر Halford Mackinder (١٨٦٠-١٩٤٧) المناخ الدولي الذي اصبح مشحونا بالرغبة للحرب, نتيجة لتداخل مناطق النفوذ, بين الدول الكبرى وعدم تقبل القوى الصاعدة هذا الامر بـالقول "ان كل انفجار للقوى الاقتصادية والسكانية سوف تتردد أصداؤه وتبعاته من اقصى الأرض بدل من تبددها في الدائرة المحيطة بها في المجال المجهول ... وعليه فان العناصر الضعيفة من الكيانات السياسية في العالم سوف تهتز بعنف نتيجة ذلك"(٦٣).

تأسيساً على ذلك يمكن القول ان الرغبة الألمانية للتوسع ما هو الا تعبير صريح من منظري السياسة وصانعي القرار في ان التوازنات السياسية الدولية في نهاية القرن التاسع عشر لم تقم على أسس تراعي نوع وقوة الدولة وعدد سكانها ومساحتها, وان الحدود ومناطق الهيمنة رسمت في وقت كانت المانيا تعيش حالة الانقسام والتشظي، اما وقد حققت المانيا وحدتها السياسية بعد عام١٨٧١ فان الامر استلزم إعادة النظر في التوازن الدولي وتوزيع مناطق النفوذ, ومما شجع هذه النظرة ان واقع الحال في السياسة الدولية ينطلق من ان الدول تسعى الى حماية نفسها عن طريق زيادة قوتها ومحاولة السيطرة على المناطق ذات المنفعة الاقتصادية والعسكرية تمهيداً لزيادة قدراتها وبالتالي تبقى سياسة تحسين الموقع الجغرافي والبحث عن المنافذ البحرية وزيادة الرقعة الجغرافية للدولة, تحقيقاً لأهداف النفوذ والسيطرة والمكانة الدولية

هي نهج اغلب دول العالم في سياستها الخارجية. إضافة الى ان المناخ الدولي، في حينه، لم يكن مشجعاً للتعويل على السلام العالمي ومؤتمرات التسوية والسلام, خاصة ان لغة القوة والهيمنة وشهية الاستعمار والاستحواذ كانت السمة البارزة في ذلك العصر, مما يعني امكانيه تغير الخارطة السياسية لأوروبا في المستقبل وهذا بحد ذاته ترك أثر بالغاً في نفوس الأرستقراطية الصناعية النامية, والاكاديميين الألمان الذين شرعوا في استنطاق الجغرافية بعدها واحدة من اهم واكثر العوامل المؤثرة في التخطيط للسياسة الدولية لإيجاد حلول لحالة الضيق وعدم الانسجام بين السكان والمجال من جهة وبين الصناعة النامية بشكل متسارع وانعدام الأسواق الخارجية من جهة اخرى, فكانت المحصلة النهائية لكل تلك الارهاصات هو وصول الألمان الى قناعة بضرورة توسيع مجالهم.

لهذا ازداد الخطاب الاستعماري في المانيا وتميز بالتجرد وغلبة المصلحة الوطنية العليا، فعلى سبيل المثال كتبت صحيفة " غرينزبوت Grenzbote " الألمانية في عام ١٩٠٠ ما نصه " إننا نقول إذا كان صالح وطننا يدعو إلى الغزو أو استعباد أو تدمير او القضاء على دول, فإنه لا ينبغي لنا أن نكون مقيدين بأي واعز مسيحي أو إنساني"(٦٤). ردد في العام نفسه البارون جورج فون رينبابين George von Rheinbaben(١٨٥٥-١٩٢١) هذه الفكرة في خطابه أمام الرايخشتاغ الألماني قائلاً "إذا كان هناك شيء يتم القيام به, وهو أمر لا غنى عنه لاحتياجاتنا الوطنية، فعندئذ لا يوجد ما يدعو للقلق بشأن ما يسمى بالشعور الأخلاقي, إذا ما كان سيؤخذ بعين الاعتبار خارج حدود ألمانيا ام لا "(٦٥), وفي مقال نشر عام ١٩٠٣ بمجلة الدوتش *بلاتر Alldeutsche Blätter* التي تصدرها رابطة " الجامعة الألمانيةPan– German League" بعنوان " طريق شعبنا نحو العظمة Our People's Path to Greatness " جاء فيه "أنها رغبة طبيعية لدى الألمان في أن يطمحوا الى أن يملؤوا العالم مع ذريتهم"(٦٦), كان هذا التوق لإمبراطورية ألمانية كبرى موضوعاً ثابتاً في سعي الرابطة لتعزيز الرؤية الألمانية للتوسع والاستعمار بين الجمهور الألماني, فهي ترى إذا ما ثابر دعاة ألمانيا الكبرى اكثر فإن تطلعاتهم تصبح حقيقة واقعة، وقد سعت الرابطة إلى توحيد جميع الألمان العرقيين في مملكة واحدة فدعا احد ابرز اعضائها السياسي الألماني هاينريخ كلاس Heinrich Class (١٨٦٨-١٩٥٣) في مقال بعنوان "مستقبل الشعب الألماني *Die Zukunft des deutschen Volkstums*" في ٢٢ كانون الاول ١٩٠٣ الى أن المهمة الأكثر إلحاحاً للرابطة هي "جمع أكبر عدد ممكن من الألمان في بؤر استيطان في أوروبا الوسطى وحث الأجانب على الهجرة"(٦٧).

الاستنتاجات:

١. إنّ الاندفاع الألماني نحو الشرق الذي احياه المفكريين والفلاسفة الألمان في النصف الأول من القرن التاسع عشر هو تتويج لأتجاه تاريخي وتراث فكري وسياسي يعود الى العصر الوسيط. بمعنى أن الرغبة في التوسع نحو الشرق ما هي إلا نتاج تقاليد ترجع في أصلها لحركة وتوسع الشعب الألماني بشكل عام والدولة البروسية بشكل خاص.

٢. أراد الفلاسفة والمفكرون الألمان في القرن التاسع عشر أن يصوروا في كتاباتهم أن الوجود الألماني في الشرق يمثل عملية مستمرة بدأت في الماضي البعيد وتستمر في الحاضر فتصوروا بالإمكان عكس الهجرة الألمانية التي كانت باتجاه امريكا الى اراضي أوروبا الوسطى والشرقية وجعلها تحت هيمنة العناصر الألمانية، وكانوا في سعيهم هذا يرغبون في بناء سردي لأمة فتية مهددة ليس لها سوى العمل على استعمار أوروبا الوسطى والشرقية.

٣. كان السؤال الأكثر الحاحاً أمام المفكرين والمنظرين السياسيين الألمان هو كيفية توحيد وتوسيع حدود الامة الألمانية وانقاذها من الهلاك المتوقع، فتم إعادة صياغة مجال دلالي للرؤى الاستعمارية السابقة، وبالنتيجة توصل هؤلاء الى احياء فكرة الاتجاه نحو الشرق تحت مزاعم الخوف من الأزمة الديموغرافية والاقتصادية المستقبلية.

٤. كشفت دلالات الاتجاه نحو الشرق عند المفكرين الألمان عن نموذج نظري للإمبريالية الاستبدادية الجديدة المزمع خلقها، والتي كانت في فحواها لا تهدف إلى الاستغلال الاقتصادي للشعوب ولا الحصول على بعض القواعد الاستراتيجية في المناطق المتصورة للتوسع الألماني، انما كانت رغبة في استعمار استيطاني كامل للمناطق التي عدوها مجالاً حيوياً استراتيجياً للألمان.

٥. أدت التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي حدثت في المجتمع الألماني في القرن التاسع عشر إلى تغيير جذري في البنية الاجتماعية والسلوكية للسكان فعملت النخب الاكاديمية والسياسية على التنظير لفكرة أن هذا الانجاز بسبب تفوق "العرق الألماني" ذو الثقافة الرائدة، والذي وجد، بعد تحقيق وحدته القومية، أن العالم قد تم تقسيمة بين القوى الكبرى, فكان لزاماً عليه أمام هذا التحدي العمل على التوسع او الموت فكان على الألمان أن يواجهوا في حينه أحد خيارين: أما أن يقرروا أن يكونوا قوة عالمية أو ان يضمحلوا إلى الأبد.

٦. أظهر البحث مدى الارتباط الوثيق بين الجذور التاريخية للأتجاه نحو الشرق وبين دلالاته في القرن التاسع عشر التي اضطلع بها الفلاسفة والمفكرون الألمان بالتفاعل مع الظروف السياسية للدويلات الألمانية وحركة الوحدة الألمانية والتي قدمت في واقعها أطروحات اساسية كانت الذخيرة الروحية التي بنت عليها الامبراطورية الألمانية سياستها الاستعمارية في أوروبا الشرقية مع مطلع القرن العشرين.

الملاحق:

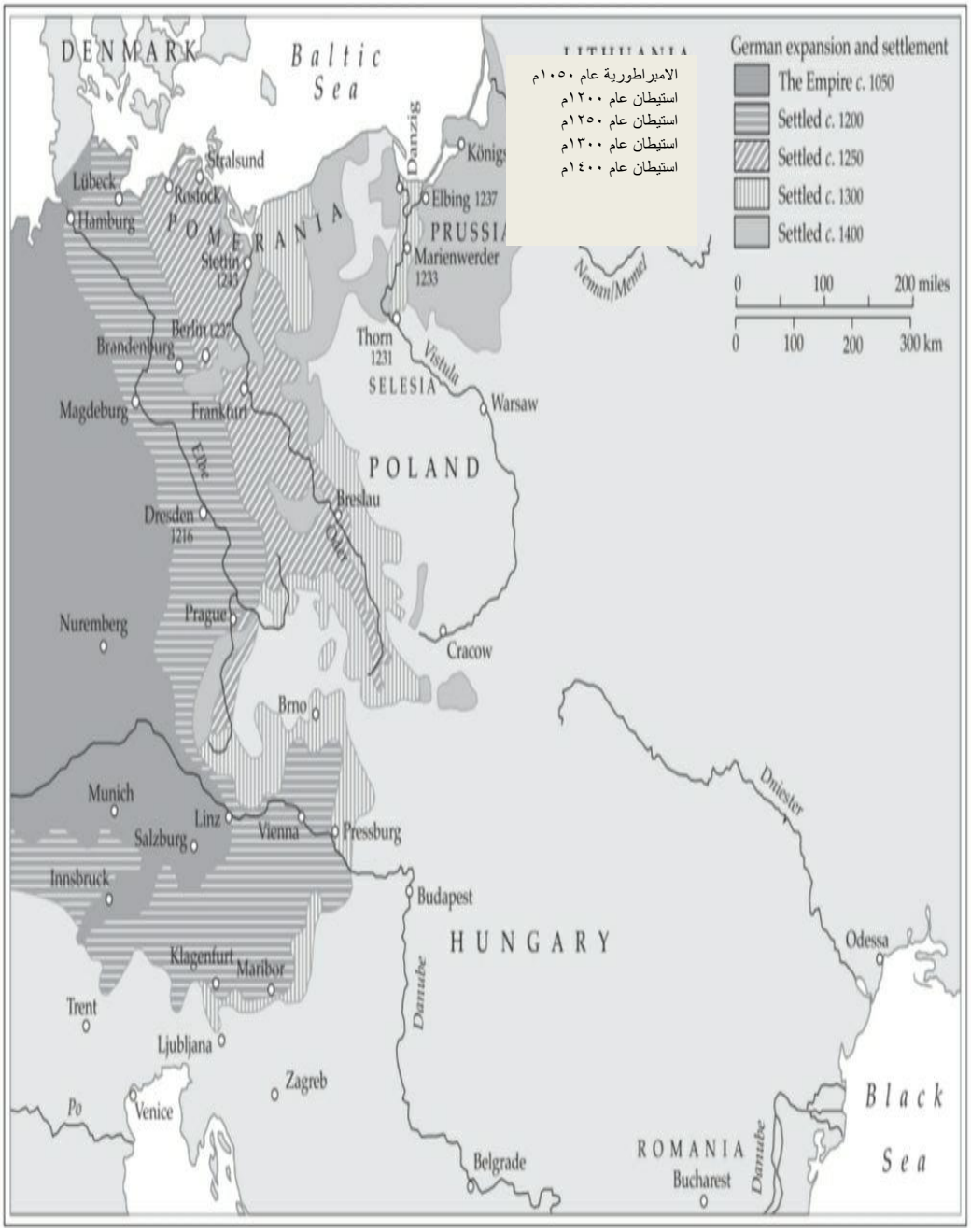

خارطة رقم (١)

Title: " German expansion and settlement"

العنوان: " التوسع والاستيطان الألماني"

التعليق: خارطة توضح التوسع والاستعمار الألماني نحو الشرق من المدة ١٢٠٠م – ١٤٠٠م[٦٨].

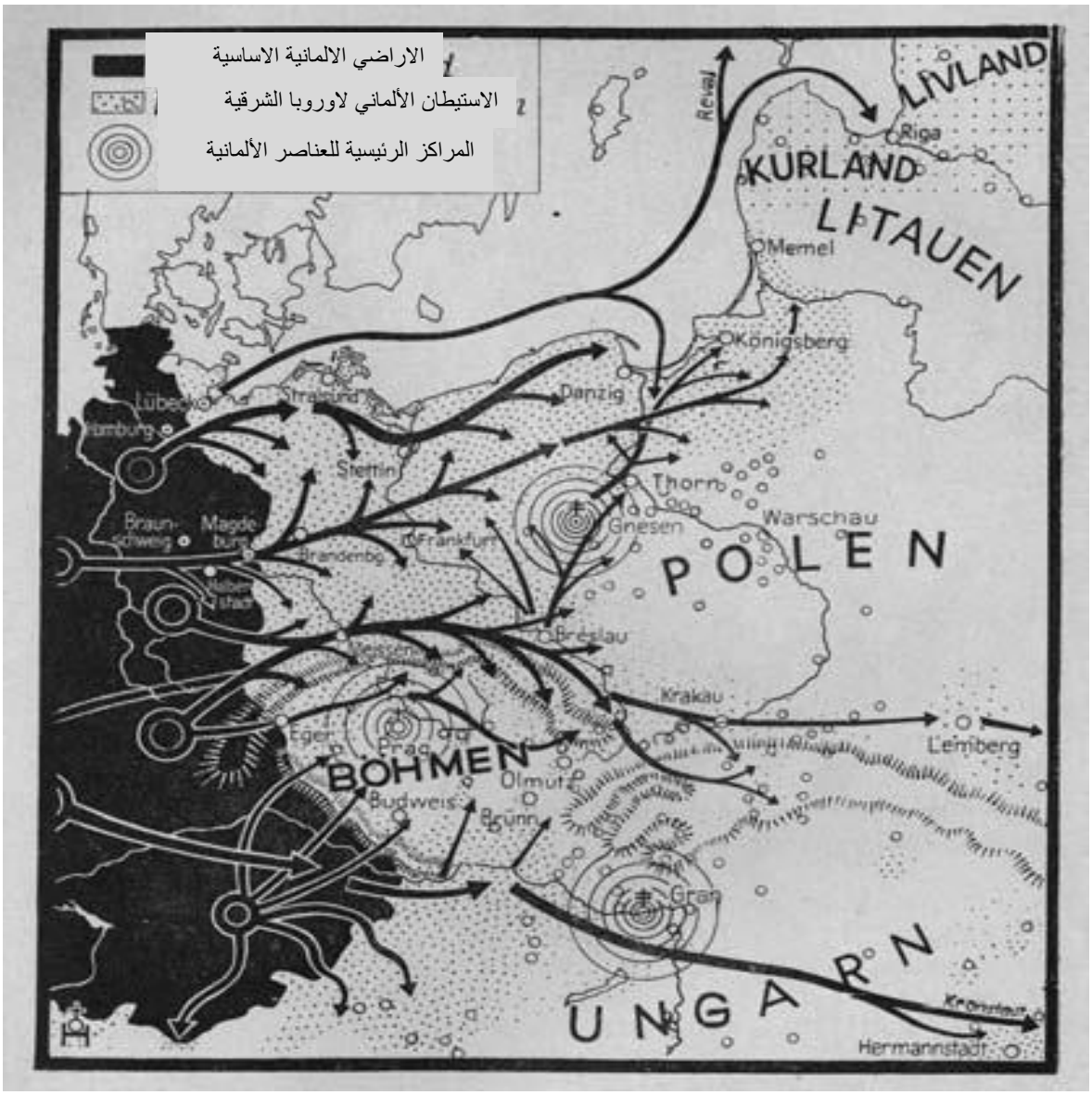

خارطة رقم (٢)

Title: " German expansion and settlement"

العنوان: " التوسع والاستيطان الألماني"

التعليق : خارطة توضح التوسع والاستعمار الألماني باتجاه الشرق في القرنين الثاني عشر والرابع عشر نشرت عام ١٩٤٣[٦٩].

خارطة رقم (٣)

Title: " Drang nach Osten "

العنوان: " الاندفاع نحو الشرق"
التعليق : توضح هذه الخارطة الاندفاع الألماني نحو الشرق، نشرت عام ١٩٣٥, وينص التعليق داخل الخارطة على "لقد اندفع المستوطنون الألمان شرقًا إلى ما وراء مساحة مجال الشعب الألماني الضيق وأخضعوا أراضي جديدة لمحراثهم. تصل التربة الثقافية الالمانية إلى نهر الدنيبر"(٧٠).

مصادر وهوامش البحث:

(١) تم صياغة مصطلح "الاندفاع نحو الشرق *Drang nach Osten*" لأول مرة عام ١٨٤٩ من الصحفي البولندي جوليان كلاشكو Julian Klaczko(١٨٢٥-١٩٠٦) للاحتجاج على رؤيا التوسع الاستعماري الألماني نحو الشرق التي دعا إليها الليبراليون القوميون في برلمان

فرانكفورت عام ١٨٤٨, والواقع, تم استعمال المصطلح في ما لا يقل عن خمسة سياقات تاريخية في الخطاب السياسي والاكاديمي الالماني في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين منها: ما يتعلق بالعلاقات الألمانية الروسية في مقاطعات البلطيق، وما يخص الصراع الألماني البولندي في بروسيا، وفيما يتعلق بالعلاقات الألمانية التشيكية في بوهيميا, وايضاً في إشارة إلى سياسة امبراطورية هابسبورج في جنوب شرق أوروبا واحياناً في الاشارة للعلاقات الالمانية العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. للمزيد من المعلومات راجع:

Vanparys, Sarah, Der Ausdruck Drang nach Osten: Geschichte und sprachwissenschaftliche Analyse, Verhandeling voorgelegd aan de Faculteit Letteren en Wijsbegeerte voor het verkrijgen van de graad van licentiaat in de taal-en letterkunde, Universiteit Gent Academiejaar, 2006-2007, p. 7- 33.

(2) Ibid., p. 7.

(3) **Rieber, Alfred J., The Struggle for the Eurasian Borderlands from the Rise of Early Modern Empires to the End of the First World War, University Printing House Cambridge United Kingdom, 2014, p. 41- 44;**

فاندش, بيوتر, س., ثمن الحرية تاريخ اوروبا الوسطى الشرقية من القرون الوسطى الى الوقت الحاضر, ترجمة: احمد رمو، منشورات الهيئة العمة السورية للكتاب, دمشق,٢٠١١.ص ٥٨.

(4) Vanparys, Op, Cit., p. 10;

فيرجريف, جيمس ,الجغرافية والسيادة العالمية, ترجمة: علي رفاعة الانصاري, مكتبة النهضة المصرية, القاهرة, ١٩٥٦.ص ١٩٣ - ١٩٤؛ فاندش , المصدر السابق, ص ٧١.

(5) Vanparys, Op, Cit., p. 10.

(6) **Rieber, Op, Cit., p. 41- 44;**

فاندش، المصدر السابق , ص ٥٨؛ للمزيد من التفاصيل حول موقع وابعاد التوسع الألماني في الشرق راجع خارطة رقم (١) و (٢).

(7) **Rieber, Op, Cit., p. 41- 44.**

(٨) أشار هتلر في كتابه كفاحي الى ما حل ببروسيا والفرسان التيوتون عندما قال "وهكذا فعلينا نحن الاشتراكيون الوطنيون ...ان نستأنف ما انقطع قبل ستمائة عام علينا ان نوقف الحركة الألمانية المستمرة نحو الجنوب والغرب وان نتطلع الى الأرض الواقعة في الشرق، مقتبس من: شيرر، وليم، تاريخ المانية الهتلرية نشأة وسقوط الرايخ الثالث، تعريب: خيري حماد، ط ٢, منشورات مكتبة المثنى - بغداد, ١٩٦٦, ص ١٦٨.

(٩) فاندش، المصدر السابق، ص ١٣٢.

(10) **Rieber, Op, Cit., p. 47.**

(11) **Ibid., p. 42;**

قرم، جورج، تاريخ اوروبا وبناء اسطورة الغرب، ترجمة: رلى ذبيان، دار الفارابي، بيروت, ٢٠١١, ص ٢٤٥.

(١٢) صادق، دولت احمد واخرون، الجغرافية السياسية، ط ٣, مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة, ١٩٦٥, ص ٢٣٨-٢٤١.

(13) **Rieber, Op, Cit., p. 46.**

(١٤) موللر، هلبرت، التحركات السكانية في تاريخ اوروبا، ترجمة: شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر, ١٩٧١, ص ص ٥٤-٥٥.

(١٥) صادق، دولت احمد واخرون، المصدر السابق، ص ص ٢٣٨- ٢٤١.

(١٦) موللر, المصدر السابق, ص ٥٥ .

(١٧) الجبوري، مهدي صالح، المانيا ١٧٨٩-١٨٧١ دراسة في دور بروسيا في توحيد المانيا، أطروحة دكتوراه غير منشورة، المعهد العالي للدراسات السياسية والدولية الجامعة المستنصرية, ٢٠٠٤, ص ٤٨.

(18) **Rieber, Op, Cit., p. 42;**

في ألمانيا كان ينظر الى الاندفاع نحو الشرق على أنه جزء من المهمة الألمانية التي كان من المقرر لها نقل الثقافة إلى الشعوب البربرية، للمزيد من المعلومات انظر:

Vanparys, Op, Cit., p. 9.

(19) Ibid., p. 12.

(٢٠) الدسوقي، محمد كمال, تاريخ المانيا, دار المعارف, القاهرة, ١٩٦٩, ص ٦٠ .

(٢١) جرانت, ا . ج. وهارولد تمبري، أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٩٥٠-١٧٨٩, ترجمة: بهاء فهمي, ج ١, مؤسسة سجل العرب, القاهرة, ١٩٦٧, ص ص ٤٧- ٤٨؛ موللر, المصدر السابق, ص ص ٥٥ - ٥٨؛

Vanparys, Op, Cit., p. 12.

(22) Hansen, M., German Schemes of Colonization Before 1860, Smith College Studies in History, vol. 9, 1924. pp. 28-29.

(23) Rieber, Op, Cit., p. 48- 49.

(٢٤) مودي, أ.أ, الجغرافية من وراء السياسة, ترجمة: روفائيل جرجس, سلسلة الالف كتاب, رقم ٤٢٠, دار الهلال, القاهرة, د.ت, ص ١٣٣؛ للمزيد من المعلومات حول ابعاد الاندفاع والتوسع الألماني نحو الشرق الذي فصلناه اعلاه انظر خارطة رقم (١) و (٣).

(٢٥) عبر هتلر عنه بالقول "ان التوسع في شرق أوروبا كان خطوة عظيمة بل من أعظم الانجازات التي قام بها الأجداد ولو انهم لم يفعلوا ذلك لكنا اليوم مقاطعة تدين بالولاء لروسيا في الشرق او فرنسا في الغرب" مقتبس من: هتلر، المصدر السابق, ص ٦٤٤.

(٢٦) نعمة، كاظم هاشم، الوجيز في الاستراتيجية، جامعة بغداد, بغداد, ١٩٨٨, ص١٢٤.

(27) Qouted, in: Lacoste, Yves, "Geography and Foreign Policy", SAIS Review, Volume 4, Number 2, Summer-Fall, 1984, pp. 213.

(٢٨) مقتبس من: عبد الوهاب, عبد المنعم , جغرافية العلاقات السياسية, مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع, الكويت, د.ت, ص ١٣٣.

(٢٩) اردنت، حنه, أسس التوليتارية, ترجمة: أنطوان أبو زيد, ط ٢, دار الساقي, بيروت ٢٠١٦, ص ٣٦.

(٣٠) فريمان، ت. و، الجغرافية في مائة عام, ترجمة : عبد العزيز طريح شرف, الهيئة المصرية العامة للكتاب, ١٩٨٦, ص ٢٦.

(٣١) مقتبس من: حنفي, حسن, فخته فيلسوف المقاومة, المجلس الأعلى للثقافة, ٢٠٠٢, ص ص ٤٨٨ - ٥١٦.

(32) Pierik, Perry Wijnand, Karl Haushofer En Het Nationaal-Socialisme Tijd, Werk En Invloed, Proefschrift Ter Verkrijging Van De Graad Van Doctor Aan De Erasmus Universiteit Rotterdam 2006, p.25.

(٣٣) مقتبس من: كوهن, هانز, عصر القومية, ترجمة: عبد الرحمن صدقي, مؤسسة سجل العرب, القاهرة, ١٩٦٤, ص ٢٣.

(34) Qouted, in: Mock, Verena, Diplomarbeit Kritische Analyse Karl Haushofers Werk Geopolitik Des Pazifischen Ozeans Globalisierungstheoretische Besprechung Einer Geopolitischen Konzeption, Universität Wien, 2012, p. 51.

(٣٥) مقتبس من: كوهن, المصدر السابق, ص ٩١ .

(٣٦) مقتبس من: المصدر نفسه ، ص ٩١.

(٣٧) مقتبس من: دوغين، اسكندر، أسس الجيوبوليتكا، تعريب: عماد حاتم, دار الكتاب الجديد, بيروت, ٢٠٠٤, ص ٨٤.

(٣٨) مقتبس من: لاسكي، هارولد، الدولة بين النظرية والتطبيق، ترجمة: احمد غنيم، وكامل الزهيري، دار الطليعة, بيروت, د.ت , ص ٧٩.

(39) List, Friedrich, The National System of Political Economy, Translated: Liyod, London, 1916, p. ١١٠.

(40) Ibid., pp 166-167.

(41) Ibid., pp 166- 177;

يذكر ستراشر هوبه في بيان اثر فردريك ليست ما نصه "وهكذا، انشأ ليست نظرية مجال الحياة، على الرغم ان التعبير لم يتم صياغته بواسطته، ولكن النظرية النهائية التي تقف وراءه تنتمي الى ليست، تم الاعتراف بمساهمته في فلسفة المجال الألماني من قبل ألمانيا النازية، التي انتشلته من زوايا النسيان، واحتفلت به بعدها باعتباره منظر رؤية ألمانيا الكبرى, وابعدت وجهات نظره الاقتصادية التي لم تنسجم مع التعاليم النازية" انظر:

Hupe, Robert Strausz, Geopolitics, the Struggle For Space Power, New York, Arno Press and A New York Times Company, 1972, p. 30.

(42) **Mock, Op, Cit., p. 51.**

(43) **Wendler, Eugen, Friedrich List: Politisches Mosaik, Fachmedien Wiesbaden GmbH, Germany, 2017, p. 15.**

(٤٤) مقتبس من: متولي، محمد ومحمد أبو العلا، الجغرافية السياسية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة, ١٩٨٦, ص ٢٩.

(٤٥) نورمان, فـ كانتور, التاريخ الوسيط قصة الحضارة البداية والنهاية، ترجمة: قاسم عبده قاسم, ج١, ط٥, عين الدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية , د. ت, ص١٤٨ .

(٤٦) شتاليه, فرانسوا, تاريخ الأيديولوجيات المعرفة والسلطة من القرن الثامن عشر الى القرن العشرين, ترجمة: أنطوان حمصي, منشورات وزارة الثقافة, دمشق, ١٩٩٧, ص ٢٧٨.

(47) Quoted in: Schultz, Hans Dietrich, "Albrecht Penck: Vorbereiter und Wegbereiter der NS-Lebensraumpolitik", E&G Quaternary Science Journal, Vol. 66, 2018, p. 319.

(48) **Rieber, Op, Cit., p. 48- 49.**

(49) **Qouted, in: Umbachm, Maiken and Claus-Christian W. Szejnmann, Introduction Towards a Relational History of Spaces under National Socialism, in: Claus-Christian W. Szejnmann, Maiken Umbach, Heimat, Region, and Empire Spatial Identities under National Socialism, UK, first published by Palgrave Macmillan, 2012, p. 5.**

(50) **Ibid., p. 5.**

(51) Dmitrów, Edmund, Deutschlands östliche Nachbarschaften: eine Sammlung von historischen Essays, Auflage 1, Verlag: Peter Lang GmbH, Internationaler Verlag der Wissenschaften, 2009, p. 349.

(52) Lemberg, Hans, Der Drang nach Osten, Mythos und Realität, Deutsche in: Andreas Lawaty, Deutsche und Polen Geschichte Kultur Politik , München, 2003, Verlag C. H. Beck, p. 33-38.

(53) Qouted in: Schultz, Op, Cit., p. 320.

(54) Qouted in: Kienemann, Christoph, Der koloniale Blick gen Osten: Osteuropa im Diskurs des Deutschen Kaiserreiches von 1871, Verlag Ferdinand Schöningh, 2018, p. 65.

(55) Qouted in: Ibid., p. 66.

(56) **Lemberg, Op, Cit., p. 39.**

(٥٧) يحيى، جلال, تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر, الإسكندرية, ١٩٨٤, ص ٢٠٨.

(58) **Poloni, Bernard, Volk, Reich und Nation 1806-1918: Texte zur Einheit Deutschlands in Staat, Wirtschaft und Gesellschaft, Auflage 1, Presses Sorbonne Nouvelle, 2018, p. 197.**

(59) **Pierik, Op, Cit., p.32.**

(60) **Mock, Op, Cit., p. 51.**

(٦١) بتلهايم، شارل, ديناميت الاقتصاد الألماني من ١٨٦٠ - ١٩٣٣ وصول الاشتراكية الوطنية الى السلطة, في: مجموعة مؤلفين, دراسات في الفاشية, ترجمة: جوزيف سماحة, ط ٢, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت, ١٩٨٨, ص ٩٢.

(62) **Halford Mackinder, "The geographical pivot of history", The Geogaphical Journal, The Geographical Journal, Vol. 23, No. 4, 1904, p. 421.**

(63) **Ibid., p. 422.**

(64) Quted in: Kamenetsky, Kamenetsky, Secret Nazi Plans for Eastern Europe, A Study of Lebensraum Policies, New York, Bookman Associates, 1961. p. 28.

(65) Quoted in: Ibid., p. 28.

(66) Quoted in: Schwartzberg, Jennifer Adele, Race and Space: the Radical Nationalism of the Pan-German League, Thesis Submitted to the Graduate Faculty of The University of Georgia in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree Master of Arts Athens, Georgia, 2010, p. 17.

(67) Quoted in: Ibid., p. 17.

(68) Liulevicius, Vejas Gabriel, The German Myth of the East 1800 to the Present, New York, Oxford University Press Inc., 2009, p. 132.

(69) Kopp, Kristin, Germany's Wild East Constructing Poland as Colonial Space, the University of Michigan Press Ann Arbor, 2012, p. 156.

(70) Ibid., p. 152.